

أن أول مأمور به وأول منهي عنه في القرآن الكريم

بقلم : الشيخ عبد العزيز عبدلي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 102]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : 1] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴿۝﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 70-71] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 21 - 22].

في هذه الآية أجل أمر أمر الله به؟ وأعظم نهى نهى الله عنه؟

فما أجل أمر أمر الله به؟ وما أعظم نهى نهى الله عنه؟

الجواب : أجل أمر أمر الله به هو توحيده بالعبادة.

وأعظم نهى نهى الله عنه هو الشرك به.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

(وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} (النساء: 36) .

قال الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله:

يَأْمُرُ - سُبْحَانَهُ- عِبَادَهُ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَإِنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ الْمُتَقَصِّلُ عَلَى خَلْقِهِ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ مِنْهُمْ أَنْ يُوحِدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

و{شَيْئًا} نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ: فَعَمَّ الشِّرْكَ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ.

وَقَرَنَ - سُبْحَانَهُ- الْعِبَادَةَ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَى عِبَادِهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ الَّذِي حَرَّمَهُ: فَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ اجْتِنَابَ الشِّرْكِ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْعِبَادَةِ.

وَتُسَمَّى هَذِهِ الْآيَةُ: آيَةُ الْحُقُوقِ الْعَشْرَةِ؛ لِأَنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَى حُقُوقٍ عَشْرَةٍ؛ أَحَدُهَا: الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ التَّسْعَةُ الْبَاقِيَّةُ

وَابْتِدَاؤُهُ -تَعَالَى- بِالْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ وَالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ: أَدْلُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّهُ هُوَ أَهْمُهَا؛ فَإِنَّهُ لَا يُبْدَأُ إِلَّا بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمُّ، فَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ التَّوْحِيدَ أَوْجِبُ الْوَاجِبَاتِ، وَأَنَّ ضِدَّهُ - وَهُوَ الشِّرْكَ- أَعْظَمُ الْمُحَرَّمَاتِ"¹

و انتبه إلى كلام الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله فإنه قاعدة عظيمة في الدين كثير من الناس عنها غافلون قال : " وَقَرَنَ - سُبْحَانَهُ- الْعِبَادَةَ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَى عِبَادِهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ الَّذِي حَرَّمَهُ: فَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ اجْتِنَابَ الشِّرْكِ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْعِبَادَةِ."

فما أجل أمر أمر الله به؟ وأعظم نهى نهى الله عنه؟

أجل أمر أمر الله به هو توحيده بالعبادة، وأعظم نهى نهى الله عنه هو الشرك به، وهو أن يدعو مع الله غيره أو يقصد بغير ذلك من أنواع العبادة، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فقد اتخذ ربا وإلها وأشرك مع الله غيره أو يقصده بغير ذلك من أنواع العبادات.² " توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات مستلزمان لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمن لهما؛ فإن من أقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت وحده لزمه أن يعبد الله وحده ولا يجعل غيره شريكاً له في العبادة، ومن أقر بما جاء في الكتاب والسنة من الأسماء والصفات لزمه أن يعبد الله وحده لا شريك له، ومن كان مقراً بتوحيد الألوهية فهو مقر بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن من عبد الله وحده لا ينكر أن يكون خالقاً رازقاً محيياً مميتاً ولا ينكر أن يكون سميعاً بصيراً عليمًا حكيمًا."³

¹ - من "حاشية ثلاثة الأصول" ص 33 و 34.

² - خمسون سؤال وجواب في العقيدة من كتب الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله

³ - أهمية توحيد العبادة : لفضيلة الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر

لهذا كان أول أمر هو الأمر بالتوحيد وأول نهْي هو النهْي عن الشرك وهو في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة: 21 - 22].

قال الله تعالى يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)

هذا أمر عام لكل الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة، لامتنثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }⁴

وللعلامة العثيمين- رحمه الله- فائدة جلييلة في تفسير قوله تعالى- (يا أيها الناس) قال ما نصه:

النداء هنا وجهٌ لعموم الناس مع أن السورة مدنية؛ والغالب في السور المدنية أن النداء فيها يكون موجهاً للمؤمنين والله أعلم بما أراد في كتابه؛ ولو قال قائل: لعل هذه آية مكية جعلت في السورة المدنية؟ فالجواب: أن الأصل عدم ذلك - أي عدم إدخال الآية المكية في السور المدنية، أو العكس؛ ولا يجوز العدول عن هذا الأصل إلا بدليل صحيح صريح؛ وعلى هذا فما نراه في عناوين بعض السور أنها مدنية إلا آية كذا، أو مكية إلا آية كذا غير مسلم حتى يثبت ذلك بدليل صحيح صريح؛ وإلا فالأصل أن السورة المدنية جميع آياتها مدنية، وأن السور المكية جميع آياتها مكية إلا بدليل ثابت.⁵

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)

قال ابن كثير : " شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته ، بأنه تعالى هو المنعم على عبده ، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة ⁶ فاستدل على وجوب عبادته وحده .

و بماذا استدل على وجوب عبادته وحده ؟

" ثم استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم ، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة ، فجعل لكم الأرض فراشا تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها،

⁴ - تفسير السعدي

⁵ - تفسير العلامة محمد العثيمين

⁶ - تفسير ابن كثير

وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم. { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } والسماء: هو كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، { فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ } كالحبوب، والثمار، من نخيل، وفواكه، وزروع وغيرها { رِزْقًا لَكُمْ } به ترزقون، وتقوتون وتعيشون وتفكهنون.

{ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } أي: نظراء وأشباها من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق، والرزق، والتدبير، ولا في العبادة فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو ذكر **توحيد الربوبية، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرا بأنه ليس له شريك في ذلك، فذلك فليكن إقراره بأن الله لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.**⁷

قال الشيخ ابن عثيمين : قوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ .

لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره : ﴿ الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ [البقرة : 21 ، 22] ، فكل من أقر بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقر له ، لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك ، ولا ينبغي أن يعبد إلا من فعل ذلك ، ولذلك أتى بالفاء الدالة على التقرير والسببية ، أي : فبسبب ذلك لا تجعلوا لله أندادا .

و﴿ لا ﴾ هذه ناهية ، أي : فلا تجعلوا له أندادا في العبادة ، كما أنكم لم تجعلوا له أندادا في الربوبية ، وأيضاً لا تجعلوا له أندادا في أسمائه وصفاته ، لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله - عز وجل - ، كاشتقاق العزى من العزيز ، وتسميتهم رحمن اليمامة .
قوله : ﴿ أندادا ﴾ . جمع ند ، وهو الشبيه والنظير ، والمراد هنا : أندادا في العبادة .

⁷ - تفسير السعدي

قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . الجملة في موضع نصب حال من فاعل ﴿ تَجْعَلُوا ﴾ ، أي : والحال أنكم تعلمون ، والمعني : وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له - يعني في الربوبية - ، لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء أنهم يجعلون له أنداداً وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية ، أما في الألوهية ، فيجعلون له أنداداً ، قالوا للنبي ﷺ : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا شَيْءٌ عَجَاب ﴾ [ص : 5] ، ويقولون في تلبيتهم : " لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك " ، وهذا من سفههم ، فإنه إذا صار مملوكاً ، فكيف يكون شريكاً ، ولهذا أنكر الله عليهم في قوله ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ ، إذ الأنداد بالمعنى العام - بقطع النظر عن كونه يخاطب أقواماً يقررون بالربوبية - يشمل الأنداد في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات .⁸

وقوله تعالى: { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } يحتتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة، كان من المتقين، ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه.⁹

إعلم أخي المسلم أن القرآن الكريم يتنزل على النبي - ﷺ - فيصقل النفوس ويزكيها، ويربي الأمة، ويعالج ما يطرأ من مشكلات، ويجيب عن التساؤلات، ويحمل المؤمن على الالتزام بالأوامر الإلهية . فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب التي يفهمونها وتجري على ألسنتهم ، مما جعلهم جميعاً على عقيدة واحدة لا يختلفون فيها، رغم ما قد يقع بينهم من خلاف في بعض الأحكام الشرعية العملية الأخرى ، لكن مشكلتنا اليوم نحن العرب قد استعجمنا فلم نعد نفهم الكثير و الكثير جدا من اللغة العربية فلم يعد القرآن يجد مسلماً إلى النفوس والقلوب و اتسعت الهوة بيننا و بين القرآن الكريم .

فلم يكن أحد من الصحابة يستدل على وحدانية الله - تعالى - بغير كتاب الله - تعالى و سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ففي الدليل على معرفة الخالق و وحدانيته، يستدلون بالآيتين السابقتين وبقول الله - تعالى :- (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

⁸ - القول المفيد على كتاب التوحيد للعلامة العثيمين رحمه الله 134/2
⁹ - تفسير السعدي

الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) [يونس: 31]... (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) [المؤمنون: 91].

فالإيمان بالله سبحانه : الإيمان بأنه الإله الحق المستحق للعبادة دون كل ما سواه لكونه خالق العباد والمحسن إليهم والقائم بأرزقاهم والعالم بسرهم وعلانيتهم ، والقادر على إثابة مطيعهم وعقاب عاصيهم ، ولهذه العبادة خلق الله الثقلين وأمرهم كما قال تعالى : { **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون* ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** } [الذاريات : 56-58] . وقال سبحانه : { **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون* الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** } [البقرة : 21-22] .

وقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لبيان هذا الحق والدعوة إليه ، والتحذير مما يضاده كما قال سبحانه : { **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** } [النحل : 36] . وقال تعالى : { **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** } [الأنبياء : 25] . وقال عز وجل : { **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ** } [هود : 1-2] .

وحقيقة هذه العبادة : هي أفراد الله سبحانه بجميع ما تعبد العباد به من دعاء وخوف ورجاء وصلاة وصوم وذبح ونذر وغير ذلك من أنواع العبادة على وجه الخضوع له والرغبة والرهبة مع كمال الحب له سبحانه والذل لعظمته ..

وغالب القرآن الكريم نزل في هذا الأصل العظيم :

كقوله سبحانه : { **فاعبد الله مخلصاً له الدين* ألا لله الدين الخالص** } [الزمر : 2-3]

وقوله سبحانه : { **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** } [الإسراء : 23] .

وقوله عز وجل { **فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون** } [غافر : 14]

وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - قال : "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا

يشركوا به شيئاً"¹⁰

¹⁰ - العقيدة الصحيحة زما يضادها للعلامة عبدالعزيز بن باز

فالأمر عباد الله عظيم فاطر بأمر الله وانتهى عما نهى فأول وأعظم أمر أمرنا به هو توحيده جل وعلا و أول وأخطر شيء نهانا عنه هو الشرك . قال الله تعالى: { **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً...** } الآية.

قال ابن عثيمين { **ولا تشركوا** } في مقابل "لا إله"؛ لأنها نفي.

وقوله: { **واعبدوا** } في مقابل "إلا إله"؛ لأنها إثبات.

وقوله: **«شيئاً»** نكرة في سياق النهي؛ فتعم كل شيء: لا نبياً، ولا ملكاً، ولا ولياً، بل ولا أمراً من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الدنيا شريكاً مع الله، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عابداً لها؛ كما قال ﷺ: " **تعس**

عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميعة، تعس عبد الخميصة "11. 12

نصيحي لنفسي ولغيري أولاً أن نقرأ القرآن و نتدبره ونعمل بما فيه ونحرص على التمسك بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم بفهم السلف الصالح فذلك هو الطريق المستقيم و سبيل النجاة .
وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

¹¹ - رواه البخاري

¹² القول المفيد على كتاب التوحيد للعلامة العثيمين رحمه الله 14/1